

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤ - سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

سمّيت به لاشتغالها على دعوات لإبراهيم عليه السلام ، تمت بهذه الملة . كاللحج وجعل الكعبة قبلة الصلاة ، مع الدلالة على عظمتها ، بحيث صارت من المطالب المهمة للمتنفق على غاية كمال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعلى نبوة نبيّنا عليه أكل التحيات وأفضل التسليمات مع غاية كماله ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ! أفاده المهايغي .
وهي مكية النزول ، قيل : إلّا قوله تعالى^(١) « أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ... » الآيتين . وهي اثنتان وخمسون آية ،

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

«الر كَتَبْنَا» خبر لـ (الر) على كونه مبتدأ. أو خبر لمحذوف على كونه خبراً المضمراً، أو مسروداً على نمط التعديد. وقوله تعالى : «أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ» صفة له «لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» أى : من الضلال إلى الهدى «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» أى : أمره . وقوله تعالى : «إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» بدل من قوله (إِلَى النُّورِ) بتكرير العامل . أو مستأنف ، كأنه قيل : إلى أى نور؟ فقيل : إِلَى صِرَاطٍ ... الخ . و (الْعَزِيزِ) الذى لا يغاب ولا يمانع بل هو القاهر القادر . و (الْحَمِيدِ) المحمود فى أمره ونهيه لإنعامه فيهما بأعظم النعم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

«اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» قرئ لفظ الجلالة بالرفع على الابتداء وخبره ما بعده . أو على الخبرية لمحذوف . وقرئ بالجر ، عطف بيان لـ (الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) «وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ» أى : بما أنزلناه إليك «مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» يوم القيامة وهو عذاب النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

« الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ » أى : يؤثرونها عليها « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » بتعويق الناس عن الإيمان « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب ، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة ، أو يبغون لها اعوجاجاً ، أى يطلبون أن يروا فيها عوجاً قادحاً ، على الحذف والإيصال « أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » أى : ضلوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل ، والبعد فى الحقيقة للضال نفسه ، وصف به فعله للمبالغة ، يجعل الضلال نفسه ضالاً . وفى إثبات الظرف على (أولئك ضالون ضلالاً بعيداً) دلالة على تمكّنهم فيه ، باشتماله عليهم اشتمال المحيط على المحاط ، مبالغة فى إثبات وصف الضلال . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » أى : ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا : لم نفهم ما خاطبنا به كما قال (١) (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) . (فإن قلت :) لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعاً (قُلْ يَسَاءُ يَهُمَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (٢) بل إلى الثقلين وهم على السنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة ، فلغيرهم الحجة .

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] .

وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً . (قات) : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحدٍ منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل ؛ فبقى أن ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه . فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانها وتفهمها ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم ، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد ، واجتهادهم في تعلّم لفظه وتعلّم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، وما يتسكّر في إتياب النفوس وكدّ القرائح فيه ، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف ، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها ، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحدٍ منها ، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها ، كما كلم أمته التي هو منها يتلوهم عليهم معجزاً - لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء . ومعنى (بلسان قومه) بلغة قومه - كذا في (الكشاف) .

وقال بعض المحققين : يقول قائل : ألا تدل هذه الآية على أن بعثة النبي ﷺ كانت للعرب خاصة ؟ نقول : لا . لأنه جرت سنة الله أن يختار أمة واحدة ويُعدها تهذيب الأمم الأخرى . كما يعد فرداً واحداً منها تهذيب سائر أفرادها . ولما كانت الأمة العربية هي المختارة تهذيب الأمم وتعديل عوجها وإقامة منار العدل في ذلك العالم المظلم - فقد وجب أن التهذيب الإلهي ينزل بلغتها خاصة حتى تستعد وتهيئاً لأداء وظيفتها . وقد أتم الله نعمته عليها ، فقامت بما عهد إليها بما أدهش العالم أجمع ، والله في خلقه شؤون هـ .

تنبيه :

استدل بالآية مَنْ ذهب إلى أن اللغات اصطلاحية . قال : لأنها لو كانت توقيفية لم تعلم إلا بعد مجيئ الرسول ، والآية صريحة في علمها قبله .

وقوله تعالى : « فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ » أى لمباشرة أسبابه المؤدية إليه ، أو يخذله ولا يلطف به لعلمه أنه لا ينجع فيه الإلطاف . « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق . و (الفاء) فصيحة ، كأنه قيل : فبيّنوده ، فأضلّ الله من شاء إضلاله وهدى من شاء . والحذف للإيذان بأن مسارعة كلّ رسول إلى ما أمر به ، وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته ، أمر محقق غنى عن الذكر والبيان « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أى : فلا يغالب ، ولا يقضى إلّا بما فيه الحكمة .

ثم أشير إلى تفصيل ما أجمل في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ) بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى : أنذرهم بوقائمه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كقوم نوح ولوط . ومنه : أيام العرب ، لحروبها وملاحمها ، لأنها تعظم بها الأيام . وقيل : أيامه نعمائه عليهم ، فتكون الآية بعدها تفصيلاً لها . وقيل : هى أعمّ من النعماء والبلاء . والوجه الأول أولى ، فيما أراه ، لاختصاص كل آية بمقام ، والتأسيس خير من التأكيّد . وفى الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، بالإضافة إلى الاسم الجليل ، إيذان بفخامة شأنها . قال أبو بكر بن العربى : هذه الآية أصل فى الوعظ المرقق للقلوب .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى : فى التذكير بها « لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى : يصبر على بلائه ويشكر نعماءه . فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو أفاض عليهم من النعم ، تنبّه على ما يجب عليه من الصبر والشكر . وقيل : أراد (لكلّ مؤمن) لأن الشكر

والصبر عنوان المؤمن . وتقديم (الصَّبَار) على (الشَّكُور) لتقدم متعلق الصبر - أعنى الإيمان - على متعلق الشكر - أعنى النعماء - وكون الشكر عاقبة الصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبْحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ» أى : يبعثونكم إياه «وَيَدَّبْحُونَ أَبْنَاءَكُمْ» أى : المولودين صغاراً «وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ» أى : يبقونهن فى الحياة «وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» الإشارة إلى فعل آل فرعون . ونسبته إليه تعالى للخلق أو الإقدار والتمكين . قيل : كون قتل الأبناء ، ابتلاء ظاهر . وأما استحياء النساء ، وهن البنات أى استبقاؤهن ، فلائهن كانوا يستخدمونهن ويفرقون بينهن وبين الأزواج ، أو لأن بقاءهن دون البنين رزية فى نفسه كما قيل :

ومن أعظم الرُّزءِ فيما أَرَى بقاء البنات وموتُ البنين

ويجوز أن تكون الإشارة إلا الإنجاء من ذلك . و (البلاء) الابتلاء بالنعمة ، وهو بلاء عظيم .

قال الزمخشري : البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والحنة جميعاً ، قال تعالى (١) : (وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) . وقال زهير :

* فأبلاها خير البلاء الذى يبلو *

انتهى .

ولذا جَوِّز أن تكون الإشارة إلى جميع ما مرّ ، الشامل للنعمة والنعمة .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٥] .

لطيفة :

أشار أهل المعاني إلى نكتة مجيء (وَيَذَّبَحُونَ) هنا بالواو ، وفي سورة البقرة^(١) (يَذَّبَحُونَ) وفي الأعراف^(٢) (يُقَتِّلُونَ) بدونها . والقصة واحدة - بأنه حيث طرح الواو قصد تفسير العذاب وبيانه ، فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال . وحيث عطف - كاهنا - لم يقصد ذلك . والعذاب ، إن كان المراد منه الجنس ، فالتذبيح ، لكونه أشد أنواعه ، عطف عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أنه لشدة كونه ليس من ذلك الجنس . وإن كان المراد به غيره ، كاسترقاقهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة ، فهما متغايران والمحل محلّ العطف . وجوز أيضاً كون العطف هنا للتفسير وكأن التفسير - لكونه أوفى بالمراد وأظهر - بمنزلة المغاير ، فلذا عطف .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ » أى : آذن وأعلم ، إعلاماً بليغاً - من جملة ما قال موسى لقومه « لَئِنْ شَكَرْتُمْ » أى : نعمه ، بصرفها إلى ما خلقت له . كالعقل إلى تصحيح الاعتقاد فيه واستعمال سائر النعم بمقتضاه « لَأَزِيدَنَّكُمْ » أى : من النعم « وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » فيصيبكم منه ما يسلب تلك النعم ويحل أشدّ النقم .

(١) [٢ / البقرة / ٤٩] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٤١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَسْكُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) « وَقَالَ مُوسَىٰ » أى : لقومه « إِن تَسْكُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » أى : غنى عن شكر عباده ، المحمود بأجل الحمد . وإن كفره من كفره . وهو تعليل لما حذف من جواب (إن) أى : إن تكفروا لم يرجع وباله إلا علمكم . فإن الله لغنى عن شكر الشاكرين .

وفى (صحيح مسلم)^(١) عن أبى ذرٍّ ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ؛ أنه قال : « يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسأله ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر » ، فسبحانه من غنى حميد . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَهُودَ ، وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا عِمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) « أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى مؤاخذه من كفر « نَبُوءُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ »

(١) أخرجه مسلم فى ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، ١٥ - باب تحريم الظلم ،

حديث رقم ٥٥ (طبعتنا) من حديث طويل عظيم جداً ناظره .

أى : مع كثرتهم « وَعَادِ » أى مع غاية قوتهم « وَثَمُودَ » مع كثرة تحصنهم وصنائعهم « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ » .

قال ابن جرير^(١) : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعنى : وتذكره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل .

قال ابن كثير : وفيما قال ابن جرير نظر ؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ؛ فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه لقصّه عليهم ، ولا شك حينئذ أن تكون هاتان القصتان في التوراة والله أعلم .

وقوله تعالى « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ » جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً ، أو عطف (الذين) على قوم نوح ، و (لا يعلمهم . . .) الخ اعتراض ، ومعنى الاعتراض ، على الثانى : ألم يأتكم أنباء الجمل الغفير الذى لا يحصى كثرة فتعتبروا بها؟ إن فى ذلك لمعتبراً . وعلى الأول ، فهو ترق ومعناه : ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى بعدهم؟ كأنه يقول : دع التفصيل فإنه لا مطمع فيه ، وفيه لطف لايهام الجمع بين الإجمال والتفصيل .

وقوله تعالى : « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ » يحتمل الأيدى والأفواه أن يكونا الجارحتين المعروفتين ، وأن يكونا من مجاز الكلام . وفى الأول وجوه :

أى : ردوا أيديهم فى أفواههم فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل ، كقوله^(٢) : (عَضُّوا عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغَيْظِ) . أو وضعوها على أفواههم ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك . أو وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء : أن يكفوا ويسكتوا . أو أشاروا بأيديهم

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٧ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١١٩] .

إلى أفواه الرسل أن : اسكتوا . و (فى) بمعنى (إلى) . أو وضعوا أيديهم على أفواه الرسل منعاً لهم من الكلام أو أنهم أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليقطعوا كلامهم . ومن بآلغ فى منع غيره من الكلام ، فقد يفعل به ذلك . أو أشاروا بأيديهم إلى جوابهم وهو قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) أى : هذا جوابنا الذى نقوله بأفواهنا ، والمراد إشارتهم إلى كلامهم كما يقع فى كلام المتخاطبين ، أنهم يشيرون إلى أن هذا هو الجواب ثم يقررونه ، أو يقررون ثم يشيرون بأيديهم إلى أن هذا هو الجواب . قيل : وهو أقوى الوجوه المتقدمة . لأنهم لما حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، جمعوا فى الإنكار بين الفعل والقول . ولذا أتى بالفاء تنبيهاً على أنهم لم يملأوا ، بل عقبوا دعوتهم بالكذب . وفى تصديرهم الجملة (بأن) ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك ، مبالغة فى التأكيد .

وفى الثانى - أعنى المعنى المجازى - وجوه :

قال أبو مسلم الأصفهاني : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج ، وذلك لأن إسماع الحجة إنعام عظيم ، والإنعام يسمى يداً ، يقال لفلان عندي يد إذا أولاه معروفاً ؛ وقد يذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد ، كقوله تعالى (١) (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) . فالبيئات التى كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم وأيادٍ ، وأيضاً اليهود التى كانوا يأتون بها مع القوم أبادٍ ؛ وجمع اليد فى العدد القليل هو الأيدى ، وفى العدد الكثير الأيادى . فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي . وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم ، فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت ؛ ونظير قوله تعالى (٢) : (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ) ؛ فلما كان القبول تلقياً بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردّاً فى الأفواه . انتهى .

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

وفي (الرازي) تتمّة الأوجه فانظرها إن شئت .

قال في (العناية) : فإن قلت : قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) جزم بالكفر لا سيما وقد أكد (إن) ، فقولهم (وَإِنَّا لَنَفِي شَكٍّ) ينافيه . قلت : أجيب بأن الواو بمعنى أو ، أى أحد الأمرين لازم وهو : إنا كفرنا جزمًا فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه . وأيًا ما كان ، فلا سبيل إلى الإقرار . وقيل : إن الكفر عدم الإيمان عن هو من شأنه ، فكفرنا بمعنى لم نصدق ، وذلك لا ينافي الشك ، أو متعلق الكفر الكتب والشرائع ، ومتعلق الشك ما يدعونهم إليه من التوحيد مثلاً . انتهى .

أى : فلا ينافي شكهم في ذلك كفرهم القطعىّ بالأول .

وقوله تعالى « مُرِيبٌ » بمعنى موقع في الريبة ، من (أرابه) أوقعه فيها ؛ أو ذى ريبة ، من (أراب) : صار ذا ريبة وهى صفة مؤكدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِىَ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ

لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ

مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

« قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِىَ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : وهو مما لا مجال للشك

فيه لغاية ظهوره .

قال ابن كثير : هذا يحتمل معنيين : أحدهما : أى وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به . فإن الاعتراف به ضرورى في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه فطر السموات والأرض - أى الذى خلقهما وابتدعهما

على غير مثالٍ سبق - فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما . فلا بدّ لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه . والمعنى الثاني : أفى إلهيته وتفردّه بوجوب العبادة له، شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلى . انتهى .

وسبق لنا فى سورة الأعراف البحث فى أن معرفته تعالى ضرورية أو نظرية فارجع إليه .

وفى إدخال همزة الإنكار على الظرف إيذان بأن مدار الإنكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلاً ، وفى العدول عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا : (أَأَنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ رَبِّهِ مِنَ اللَّهِ) مبالغة فى تنزيه ساحة جلاله عن شائبة الشك وتسجيل عليهم بسخافة القول .

وقوله تعالى : «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ» أى : يدعوكم إلى الإيمان بإرساله إيانا ، لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يومه قولكم (مما تدعوننا إليه) . ولام (ليغفر) متعلقة بـ (يدعو) أى : لأجل المغفرة لا لفائدته ، تعالى وتقدس ، أو للتعديّة أى : يدعوكم إلى المغفرة : كقولك : دعوتك لزيد . و (من) إما تبعيضية أى : بعض ذنوبكم وهو ما بينهم وبين الله تعالى دون المظالم ، أو صلة ، على مذهب الأخفش وغيره ، من زيادتها فى الإيجاب ، أو للبدل أى : بدل عقوبة ذنوبكم ، أو على تضمين (يغفر) معنى (يخلص) .

وادعى الزمخشريّ مجيئه بـ (من) هكذا فى خطاب الكافرين دون المؤمنين فى جميع القرآن . قال : وكان ذلك للفرقة بين الخطايين ، ولثلاث يسوى بين الفريقين فى الميعاد . قال فى (الكشف) : وللتخصيص فائدة أخرى وهى الفرقة بين الخطايين بالتصريح

بِغَفْرَةِ الْكُلِّ وَإِبْقَاءِ الْبَعْضِ فِي حَقِّ الْكَفْرَةِ مَسْكُوتًا عَنْهُ لَثَلَا يَتَكَلَّوْا عَلَى الْإِيمَانِ .
 وقوله تعالى : « وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : يمتنعكم متاعًا حسنًا إلى أجل
 مُّسَمًّى « قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
 فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » أى : آية مما نقتضيه تدل على فضلكم علينا بالنبوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ
 مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ،
 وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ » أى : بالرسالة والنبوة « وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ »
 أى : بأمره وإرادته ، وهو لم يرد ذلك ، لقوله ^(١) : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ
 كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) .

« وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » قال الزمخشري : أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل ،
 وقصدوا به أنفسهم قصدًا أوليًا وأمرؤها به كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله
 فى الصبر على معاندكم وما يجرى علينا منكم . ألا ترى إلى قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنْصْبِرَنَّ عَلَىٰ
 مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ » ومعناه : وأى عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه

« وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا » أى : أرشد كلاً منا سبيله ومنهاجه الذى شرع له ، وأوجب عليه سلوكه فى الدين . وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل ، قالوا على سبيل التوكيد القسمى ، مظهرين لسكال العزيمة : « وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا » أى : من الكلام السيئ والأفعال السخيفة . وقوله « وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » فيه اهتمام بالتوكل عليه سبحانه ، لأن مقام الدعوة يقتضيه . ولذا أعيد ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)

[١٤] (وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)
« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ » .

« وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ »
يخبر تعالى عما توعد به الكافرون رسلهم ، لما رأوهم صابرين متوكلين ، لا يهمهم شأنهم من الإخراج من الأرض ، والنق من بين أظهرهم ، أو العود فى ملتهم . والمعنى : ليكون أحد الأمرين .

والسبب فى هذا التوعد - كما قال الرازى - أن أهل الحق فى كل زمان يكونون قليلين ، وأهل الباطل يكونون كثيرين . والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين . فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة . فإن قيل : يتوهم من لفظ (العود) أنهم كانوا فى ملة الكفر قبل . أجيب : بأن (عاد) بمعنى صار . وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، أو الكلام على ظنهم وزعمهم

أنهم كانوا من أهل ملتهم قبل إظهار الدعوة . أو الخطاب للرسول ولقومهم ، فغلبوا عليهم في نسبة العود إليهم .

وقوله تعالى : « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ . . . » الخ وعد صادق للرسول ، وبشارة حقة . كما قال تعالى^(١) : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) وقال تعالى^(٢) : (وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا) والآيات في ذلك كثيرة . والإشارة في (ذلك) إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين . وقوله (لِمَنْ خَافَ . . .) الخ أى : للمتقين لأنهم الموصوفون بما ذكر كقوله^(٣) (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) . و (المقام) إما موقف الحساب ، فهو اسم مكان ، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه . أو مصدر ميمي ، بمعنى : حفظى وقيامى لأعمالهم ليجازوا عليها . أو مقحم للتفخيم والتعظيم كما يقال : المقام العالى . وياء المتكلم في (وعيد) محذوفة للاكتفاء بالكسرة عنها في غير الوقف .

قال السمين : أثبت الياء - هنا وفي (ق) في موضعين^(٤) : (كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)^(٥) (فَذَكَّرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) - وصلاً ، وحذفها وقفاً - ورش عن نافع . وحذفها الباقرن وصلأ ووقفأ .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

«وَأَسْتَفْتَحُوا» أى : سألوا من الله الفتح على أعدائهم ، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم .

(١) [٣٧ / الصفات / ١٧١ - ١٧٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٢٨] و [٢٨ / القصص / ٨٣] .

(٤) [٥٠ / ق / ١٤] . (٥) [٥٠ / ق / ٤٥] .

من (الفتاحة) وهي الحكومة كقوله ^(١) : (رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ)؛ فالضمير للرسول ، وقيل : للكفرة ، وقيل : للفريقين . فإنهم سألوا أن ينصر الحق ويهلك المبتطل . وقوله : « وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أى : فنصروا عند استفتاحهم وأفلحوا (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وهم قومهم . أو استفتح الكفار على الرسول وخابوا ولم يفلحوا . وإنما قيل : (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) ذمًا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبر والعناد . أو استفتحوا جميعاً فنصر الرسول وأنجز لهم الوعد ، وخاب أعداؤهم . و (الجبار) التكبر على طاعة الله تعالى وعبادته . و (العنيد) المعاند للحق ، كخليط بمعنى مخالط .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (مِّنْ وَرَآيِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ)

« مِّنْ وَرَآيِهِ جَهَنَّمُ » جملة فى محل جر صفة لـ (جبار) كناية عن تطلبها له وترصدها إياه ، ومن تطلب شيئاً وترصده أدركه لا محالة . وقيل : على تقدير مضاف ، أى : من وراء حياته وانقضاء عمره . « وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ » وهو ما يسيل من جوف أهل النار ، قد خالط القيح والدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَآيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)

« يَتَجَرَّعُهُ » أى : يتكلف تجرعه لقهره عليه « وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ » لخبثه « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » أى : تحيط به أسبابه من الأحوال ، وما هو بمستريح مما نزل به « وَمِنْ وَرَآيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى : شديد متصل لا ينقطع .

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ أُشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ

عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ)

«مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ أُشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ» المثل مستعار للصفة التي

فيها غرابة. شبه تعالى أعمالهم اللاتي كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها - كإنفاق الأموال

وعقر الإبل للضيغان ، في حبوطها - لكونها على غير تقوى وإيمان - برماد طيرته الريح

العاصف . وقوله تعالى (لَا يَقْدِرُونَ ...) الخ مستأنف فذلك للتمثيل بمعنى المقصود منه

ومحصل وجهه ، أى : لا يقدرُونَ يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء منها ، أى

لا يرون له أثراً من ثواب ، كما لا يقدر ، من الرماد المطير في الريح ، على شيء .

قال أبو السعود : الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام ، مع أن لها عقوبات

هائلة ، للتصريح ببطالان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى . وفيه تهكم بهم .

وفي توصيف الضلال بالبعد ، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب .

(واشتد به) من (شد) بمعنى عدا والباء للتعدية أو للملابسة . أو من (الشدّة) بمعنى

القوة أى : قويت بملابسة حمله . و (العصف) قوة هبوب الريح . وصف به زمانها على

الإسناد المجازى كـ (نهاره صائم) . وخبر (مثل) محذوف أى : فيما يتلى عليكم . وجملة

(أعمالهم كرماد) مستأنفة جواباً لسؤال : كيف مثلهم ؟ أو (أعمالهم) بدل من (مثل)

و (كرماد) الخبر .

وهذه الآية كقوله تعالى^(١) : (وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ حَبَآءً مَّنْثُورًا)

وقوله تعالى^(٢) : (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٣] . (٢) [٣ / آل عمران / ١١٧] .

حَرَّثَ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (وقوله تعالى (١) :) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ وَرِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

[٢٠] (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والمراد به أمته . أو لكل أحد من الكفرة لقوله (يذهبكم) ، والرؤية رؤية القلب .

وفي الآية وجهان من التأويل : أحدهما أنها سيمت لبيان قدرته تعالى على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس . أى أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات ؛ وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبرارى وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها (٢) (أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَعْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُجَسِّىَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى (٣) : (أَو لَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٤] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .

(٣) [٣٦ / يس / ٧٧-٨١] .

مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

الوجه الثاني : ترهيب المشركين بأنهم غير معجزين ، أى : إن يشأ يهلككم إذا خالفتم أمره ، ويخلق قوماً خيراً منكم كقوله تعالى (١) : (وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ) وقوله (٢) : (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا) .

وقوله تعالى ؛ « بِالْحَقِّ » أى : بالحكمة المنزهة عن العبث كقوله (٣) : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَطِلًا) وقوله (٤) : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطِلًا) وقوله (٥) : (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) وذلك ليتفكر فى خلقها ويستدل بها على وجود بارئها وقدرته ووحدته .

ثم أخبر تعالى عن تخاصم المجرمين فى المحشر وتبرئهم من بعضهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ)

« وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا » أى : اجتمعوا لحسابه وقضائه يوم القيامة فى براز من الأرض ،

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩١] .

(٤) [٣٨ / ص / ٢٧] . (٥) [١٠ / يونس / ٥] .

وهو المكان الذى ليس فيه شئ يستر أحداً، أو برزوا من قبورهم أى : ظهروا لذلك « فَقَالَ الضُّعَفَاؤُ » وهم الأتباع « لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا » أى : على الرسل وهم قادتهم - توبيخاً لهم - « إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا » أى : تابعين ، مهما أمرتمونا ائتمرنا « فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » أى : بعض الإغناء . « قَالُوا » أى : المستكبرون « لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ » إحالةً ، لضلالهم وإضلالهم ، على مقامه سبحانه ، ولو هدانا بأهدائنا ، ولكن زغنا فأزغنا كما قال تعالى ^(١) : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ » أى : منجى ومهرب من العذاب ؛ ونظير الآية قوله تعالى ^(٢) : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُّؤْمِنِينَ) .

واستظهر ابن كثير هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها الآية ^(٣) : (وَإِذْ يَتَحَاكَّجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاؤُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ) .

ولا يخفى أن الآية فى هذه السورة تصدق بالتخاصم فى الموقف وفى النار ، لإفادتها أن ذلك أثر بروزهم ، وهو صادق بما ذكرنا ، فلا قرينة فيها لكون ذلك فى النار فقط ، كما ادعاه . وربما كان قوله (وَبَرَزُوا) يدل للموقف بمعناه المتقدم . ثم إن هذا التخاصم يجوز أن يكون متعدد المواطن لظاهر قوله (عِنْدَ رَبِّهِمْ) وقوله (فِي النَّارِ) . ويجوز أن يكون مرة واحدة . والمراد بـ (النَّارِ) العذاب . ووقوفهم عند ربهم ، واليأس محيط بهم ، وجهنم ترقبهم ، عذاب وأى عذاب !

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٣١] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٤٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْلَمْوَأْ أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» وهو الحكم بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء «إِنَّ

اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ» أي : على السنة رسله بأن في اتباعهم النجاة والسلامة ، أي : فوفى به وأنجز «وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ» أي : ووعدتكم وعد الباطل ، وهو أن لا يثبت ولا جزاء . ولئن كان ، فالأصنام شفعاءكم . ولم يصرح ببطلانه لدلالة قوله (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه . والإخلاف مستعار لعدم تحقق ما أخبر به وكذبه ، أو مشاكلة . وفي الآية من الإيجاز البليغ شبه الاحتباك . حيث حذف أولاً (فوفى به) لدلالة قوله بعد (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه لأنه مقابله ، وحذف ثانياً (وعد الباطل) لدلالة (وَعْدَ الْحَقِّ) .

«وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» أي حجة وبرهان «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي» أي : أسرعتم لطاعتي بمجرد ذلك ، أي وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، نخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه «فَلَا تُلْهُمُونِي» أي : بوعدي إياكم ، إذ لم يكن بطريق القسر «وَلَوْلَمْوَأْ أَنْفُسَكُمْ» أي : حيث استجبتم لي باختياركم ، حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل . ولم تستجيبوا ربكم ، إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبراهين والحجج .

قال القاشاني : لما ظهر سلطان الحق على شيطان الوهم وتنور بنوره ، أسلم وأطاع وصار محققاً علماً بأن الحجة لله في دعوته للخلق إلى الحق ، لا له . ودعوته إلى الباطل بتسويل الخطام

وتزيين الحياة الدنيا عليهم - واهية فارغة عن الحجة . وأقرّ بأن وعده تعالى بالبقاء بعد خراب البدن والثواب والعقاب عند البعث ، حقّ قد وفى به . ووعدى بأن ليس إلا الحياة الدنيا باطل اختلقته . فاستحقاق اللوم ليس إلا لمن قبل الدعوة الحالية عن الحجة فاستجاب لها . وأعرض عن الدعوة المقرونة بالبرهان فلم يستجب لها . انتهى .

وحكى فى (الإكليل) عن ابن الفرس : أن بعضهم انتزع من هذا إبطال التقليد فى الاعتقاد . قال : وهو انتزاع حسن . لأنهم اتبعوا الشيطان بمجرد دعواه ، ولم يطلبوا منه برهاناً . فحكى الله قوله تقييماً لذلك الفعل منهم . انتهى .

«مَّا أَتَا بُمُضِرِّ خِكُمْ» أى : بمنفيكم ومنجيكم من العذاب «وَمَا أَنتُمْ بِمُضِرِّ خِيٍّ» أى : مما أنا فيه . قال ابن الأعرابي : الصارخ : المستغيث ، والمُضِرِّخ : المغيث ، يقال : صرخ فلان إذا استغاث وقال : واغوثاه ! وأصرخته أغثته . فالهمزة للسلب . يعنى أزلت صراخه ، وهومد الصوت . «إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَ كُتُمُونَ مِنْ قَبْلُ» أى : كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم - أى فى الدنيا - يعنى : جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وتبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة كقوله تعالى^(١) : (وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِّ كِكُمْ) وقوله^(٢) (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) وقوله^(٣) : (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . «إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ابتداء كلام منه تعالى ، أو تنمة كلام الشيطان .

قال الزمخشري : وإنما حكى الله عزّ وعلاً ما سيقوله فى ذلك الوقت ، ليكون لطفاً للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم . ولما ذكر تعالى مآل الأشقياء ومآصاروا إليه من الخزي والنكال ، عطف بمآل السعداء بقوله سبحانه .

(١) [٣٥ / فاطر / ١٤] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٦] . (٣) [١٩ / مريم / ٨٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَأَدْخِلْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

« وَأَدْخِلْ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله ورسوله وكتابه « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى : الطاعات « جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى : من تحت مساكنها وشجرها، أنهار الخمر والماء والعسل واللبن « خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » متعلق بـ (أدخل) أى : أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » أى : تحييتهم وتكرمهم الملائكة بالسلام عليهم، كقوله تعالى^(١) : « وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله^(٢) (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) .

ولما بين تعالى ما أعد للمشركين والمؤمنين من المال الأخروى ، ضرب مثلاً للشرك والإيمان - بأن مال الثانى الثبات والاستقرار لأنه الذى ينفع الناس، ومال الأول إلى الدمار والاندحار - فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)

[٢٥] (تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ » يعنى فى الأرض ضارب بعروقه فيها « وَفَرْعُهَا » أى أعلاها ورأسها « فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا »

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٣ و ٢٤] .

أى ثمرها « كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » أى بإرادته وتكوينه « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى : لأن فيها زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني المعقولة بالصور المحسوسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)

« وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ » أى : استؤصلت وأخذت جذعها بالكلية « مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ » أى : لأن عروقها قريبة منه « مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ » أى : استقرار .

تنبيه :

لحظ فى الممثل به - أعنى الشجرة - أوصاف جليلة لتلاحظ فى جانب الممثل له . فنها : كونها طيبة . أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح . وطيب الثمرة وطيب المنفعة . وكون أصلها ثابتاً أى : راسخاً باقياً فى أمنٍ من الانتقال والانتقاع والزوال والفناء ليعظم الفرح به والسرور . وكون فرعها فى السماء فدل على كمال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها فى التصاعد ، مما يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وجهة بعدها عن العفونات والأقذار فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب . وكون ثمرتها تجتمع كل حين فلا تنقطع بركاتها وخيراتها . ولا ريب أن وجود هذه الأوصاف مما يدل على نخامة الموصوف وإنافة فضله . ولا تخفى مطابقة هذا الممثل به للممثل له - أعنى الحق - وهو الإسلام الذى جاء به خاتم الأنبياء عليهم السلام .

ولما كان المثل مضروباً للحق والباطل فى الثبات وعدمه ، والقصد أهلها ، صرح بهما فذلك له ، فقال فى أهل المثل الأول :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

« يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » القول الثابت هو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة وهو الحق . و (بالقول) جوزوا تعلقه بـ (يثبت) و (آمنوا) . والمعنى على الأول : ثبتهم بالبقاء على ذلك ، أو ثبتهم في سؤال القبر به ، وعلى الثاني فالباء سببية والمعنى : آمنوا بالتوحيد الخالص فوحدوه وزهوه عما لا يليق بجناحه . و (في الحياة) متعلق بـ (يثبت أو بالثابت) كما قاله أبو البقاء . واقتصر الزخشرى وأتباعه على الأول حيث قال :

القول الثابت الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنات إليه نفسه . وثبتيتهم به في الدنيا ، أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزولوا . كما ثبت أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ؛ وثبتيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر . وقيل : معناه الثبات عند سؤال القبر . فعن البراء بن عازب رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : (المسلم إذا سُئِلَ في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) قال : فذلك قوله تعالى (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ . . .) الآية ، رواه الشيخان^(١) وأهل السنن .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٤ - سورة إبراهيم ، ٢ - باب

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ، حديث ٧٢٥ .

وأخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٧٣ (طبعتنا) .

وعليه ، فتفسير الآخرة بالقبر ، لكون الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا .
وقال في أصحاب المثل الثانى :

« وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ » أى : يخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم ، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشيء فى غير موضعه ، أولظالمهم أنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها « وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى : من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)

[٢٩] (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ)

[٣٠] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ

إِلَى النَّارِ)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا » يعنى كفار مكة . أَتَتْهُمْ نعمة الله وهو التوحيد والإيمان والهداية ببعثة رسول من أنفسهم ، فبدلوا شكرها كفرًا عظيمًا وغمصًا لها « وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ » أى : ممن أضلوه وصدوه عن الهدى فتابعهم « دَارَ الْبَوَارِ » أى : الهلاك « جَهَنَّمَ » عطف بيان لها « يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا » أى من الأوثان فعبدوها « لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِهِ » أى : عن عبادته وحده « قُلْ » أى : تهديدًا لأولئك الضالين المضلين « تَمَتَّعُوا » أى : بشهوات الحياة الدنيا « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

«قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ» وهو يوم القيامة «لَا بَيْعَ فِيهِ» أى : ليتدارك به التقصير ، أو يفقدى به «وَلَا خِلَالٌ» أى : محالة . مصدر بمعنى المصاحبة ؛ أى لا مفاداة فيه ولا خلة أحد بمغنية شيئاً من شفاعة أو مساححة بمال يفقدى به ، كما قال تعالى ^(١) : (وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) .

قال الزمخشري : فإن قلت كيف طابق الأمر بالإتفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال ؟ قلت : من قبل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله ، وفي المكارات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها ؛ وأما الإتفاق لوجه الله خالصاً ، فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص ، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال . أى : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخاللة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارات ، وإنما ينتفع فيه بالإتفاق لوجه الله . انتهى .

قال أبو السعود : والظاهر أن (من) متعلقة بـ (أنفقوا) وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه ، من حيث أن كلاً من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير ، معاوضة وتبرعاً ، وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين في الدنيا وعدم الانتفاع بهما - من أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإتفاق في سبيله تعالى . أو من حيث أن ادخار المال وترك إنفاقه ، إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة . فحيث لا يمكن

(١) [٢ / البقرة / ١٢٣] .

ذلك في الآخرة ، فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت . وتخصيص التأكيـد بذلك لميل الطباع إلى المال ، وكونها مجبولة على حبّه والفتنة به . ولا يبعد أن يكون تأكيـداً لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضاً ، من حيث أن تركها ، كثيراً ما يكون بالاشتغال بالبيوع والمخالات . كما في قوله تعالى^(١) : (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا) . ولما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى ، وأمر المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكراً لنعمه ، شرع في تفصيل ما يستوجب على كافة الأنام الثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام ، حثاً للمؤمنين عليها وتقريعاً للـكفرة الخـلّين بها ، الواضعين موضعها الكفر والمعاصي ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» أي المزن «مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ» أي تعيشون به «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ» أي السفن «لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ» أي بإرادته «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ» أي فتجري حيث تشاءون من شرب وسقي وسواها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)
«وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينِ» أي يدأبان في سيرها وإنارتها ودرئهما

(١) [٦٢ / الجمعة / ١١] .

الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات « وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أى يتعاقبان خلفه ، لمعاشكم وسباتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَأَنبَأَكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

« وَأَنبَأَكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ » أى ما تحتاجون إليه مما تصلح أحوالكم ومعاشكم به . فكأنكم سألتُموه أو طلبتُموه بلسان الحال .

وقال القاشانى : (مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) بالسنة استعداداتكم . فإن كل شئ يسأله بلسان استعداده . كما لا يفيض عليه مع السؤال بلا تخلف وتراخ « وَإِن تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا » لعدم تنافها « إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ » أى بوضع نور الاستعداد ومادة البقاء فى ظلمة الطبيعة ومحل الفناء وصرفه فيها . أو بنقص حق الله أَوْحَق نفسه بإبطال الاستعداد « كَفَّارٌ » أى بتلك النعم التى لا تحصى ، باستعمالها فى غير ما ينبغى أن يستعمل ، وغفلته عن النعم عليه بها ، واحتجابها بها عنه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ) أى اذ كر وقت قوله صلوات الله عليه .

قال أبو السعود : والمقصود من تذكيره ، تذكير ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل . والمراد به تأكيد ما سلف من تعجبه عليه السلام ببيان فن آخر من جنائياتهم . حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم ، بعدما كفروا بالنعم العامة . وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام

حيث أسكنهم بمكة، شرفها الله تعالى، لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر
لنعم الله تعالى . وسأله تعالى أن يجعله بلداً آمناً ويرزقهم من الثمرات . وتهوى قلوبُ الناس
إليهم من كل أوب سحيق . فاستجاب الله دعاءه وجعله حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل
شيء . فكفروا بتلك النعم العظام . واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار . وجعلوا لله أنداداً
وفعلوا ما فعلوا .

« رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ » يعنى البلد الحرام ، مكة المكرمة « آمناً » أى ذا أمن .
أو آمناً أهله . « وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ » أى بئدنى وإياهم « أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ وِىِّى ،
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ » أى كنّ سبياً فى إضلالهم . كما يقال : فتنهم
الدنيا وغرّتهم . إشارة إلى أنه افتتن بالأصنام خلّاق لا تحصى . والجملة تعليل لدعائه . وإعما
صدره بالنداء إظهاراً لاعتنائه به ، ورغبته فى استجابته « فَمَنْ تَبِعَنِ » أى على ملتي وكان
حنيفاً مسلماً مثلى « فَإِنَّهُ وِىِّى وَمَنْ عَصَانِي » أى يخالف ملتي « فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »
أى فإنك ذو الأسماء الحسنى ، والمجد الأسمى ، الغنى عن الناس أجمعين . وتخصيص الاسمين
إشارة إلى سبق الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ يَتِّكَ الْمَحْرَمِ
رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ
مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي » أى بعض أولادى . وهم إسماعيل ومن ولد منه

« بِوَادٍ » هو وادى مكة « غَيْرِ ذِي زَرْعٍ » أى لا يكون فيه زرع « عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ » أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به « رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى لىكى يأتوا بعبادتك مقومةً فى ذلك الموضع . وهو متعلق بـ (أُسْكَنْتُ) أى ما أسكنتهم هذا الوادى إلا ليقموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وحدك . وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة .

« فَأَجْمَلْ أَفْدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ » أى تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً .
 فيأنسوا ويتمارفوا فيتآلفوا ويعودوا على بعضهم بالمنافع « وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ » أى فتجعلها إليهم التجار « لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » أى : نعمة إقامتهم عند بيتك المحرم بالصلاة فيها ، على كمال الإخلاص والتوحيد ، مع فراغ القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

« رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » لأن الكل خلقه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ)^(١) .

قال الزمخشري : المعنى : إنك أعلم ، بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا ، منا . وأنت أرحم بنا منا بأنفسنا ولها . فلا حاجة إلى الدعاء والطلب . وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك ، وتخشعاً لعظمتك ، وتذلاً لعزتك ، وافتقاراً إلى ما عندك ، واستعجلاً لنيل أياديك ، وولهاً إلى رحمتك . وكما يتملق العبد بين يدي سيده رغبة فى إصابته معروفه ، مع توفر السيد على حسن الملكة .

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح . فأراد أن يذكره فقال : مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين . ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها . انتهى .

وجوز في قوله تعالى : (وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) الخ ، أن يكون من كلامه تعالى ، تصديقاً لإبراهيم ، أو من كلامه عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى وَهَبَ لِىْ عَلَى الْكِبَرِ اِسْمَ عِىْلَ وَاِسْحٰقَ ، اِنَّ رَبِّىْ لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ)

« اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى وَهَبَ لِىْ عَلَى الْكِبَرِ اِسْمَ عِىْلَ وَاِسْحٰقَ » أى ليقوما مقامى فى الدعوة إليه تعالى وبث الحنيفية وإقامة الصلاة بعد ذهابى « اِنَّ رَبِّىْ لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ » أى مجيبه .

قال الزخشرى : وإنما ذكر حال الكبر ، لأن المنّة بهبة الولد فيها أعظم ، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة . والظفر بالحاجة ، على عقب اليأس ، من أجل النعم وأحلاها فى نفس الظافر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (رَبِّ اَجْعَلْنِىْ مُقِىْمَ الصَّلٰوةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِىْ ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ)
« رَبِّ اَجْعَلْنِىْ مُقِىْمَ الصَّلٰوةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِىْ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ » أى عبادتى . كذا فى (التنوير) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)

« رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » أى مجازاة العباد على أعمالهم .
قرئ (ولوالدي) . بالإفراد . وكأن هذا قبل تبين أسره له عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » يعنى مشركى أهل مكة . أى لا تحسبه ،
إذا أنظرهم وأجلهم ، أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على عملهم . بل هو يحصيه عليهم
ويعده عليهم عدداً . وفيه تسلية للرسول صلوات الله عليه ، ووعد له أكيد ، ووعد للكفرة
وسائر الظالمين شديد .

« إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ » أى يأمهاهم متمتعين بشهواتهم ، ولا يجعل عقوبتهم « لِيَوْمٍ
تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » أى ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، لهول ما يرون . فلا تقرأ أعينهم
في أماكنها ولا تطرف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَايَ)

« مُهْطِعِينَ » أى مسرعين إلى الداعي الذى يدعوهم إلى المحشر . وهذا بيان لكيفية
قيامهم من قبورهم ، وعجلتهم إلى المحشر كقوله تعالى ^(١) (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ) وقوله ^(٢)
(يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً) .

(١) [٥٤ / القمر / ٨] . (٢) [٧٠ / المعارج / ٤٣] .

« مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ » أى رافعيها إلى السماء « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ » أى لا يطفرون .
ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » أى لا قوة
فيها ، ولا ثبات ، لشدة الفزع .

قال الزمخشري : الهواء الخلاء الذى لم تشغله الأجرام ، فوصف به . فقيل : قلب فلان
هواء ، إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة . ويقال للأحمق أيضاً : قلبه هواء . والمعنى :
أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها . والأبصار شاخصة . والرؤوس مرفوعة إلى السماء .
من هول ذلك اليوم وشدته وخوف ما يقع فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا
إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِيبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرُّسُلَ ، أَوْ لَمْ تَكُونُوا
أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ)

قوله « وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ » يعنى يوم القيامة « فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا » أى رُدُّنَا إِلَى الدُّنْيَا وأمهلنا « إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى أمد من
الزمان قريب « نُّجِيبُ دَعْوَتَكَ » أى إِلَى الإِقْرَار بتوحيدك وأسمائك الحسنى . « وَتَتَّبِعَ
الرُّسُلَ » أى فيما دعونا إليه من الشرائع .

« أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ » على إضمار القول . أى فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً : أولم
تكونوا تحلفون « مِّنْ قَبْلُ » يعنى فى الدنيا « مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ » أى من دار الدنيا
إلى دار أخرى للجزاء . كقوله تعالى ^(١) (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن
يَمُوتُ) .

(١) [١٦ / النحل / ٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ)

« وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » كعاد وتمود « وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » أى بما تشاهدونه فى منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم « وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ » أى صفات ما فعلوا وما فعل بهم . أى ومع ذلك فلم يكن لكم فيهم معتبر ولا مزدجر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

« وَقَدْ مَكَرُوا » أى بالنبي صلوات الله عليه « مَكْرُهُمْ » أى العظيم أى الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل « وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ » أى جزاء مكرهم « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ » أى فى العظم والشدة « لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » أى مُسَوًى وَمُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها ، لتناهى شدته .

وجوز فى (إن) كونها نافية واللام مؤكدة لها . والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم . على أن الجبال مثل (أى استعارة تمثيلية) لآيات الله وشرائعه . لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمسكاً . وينصره قراءة ابن مسعود : (وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ) . وقرئ (لَتَزُولَ) بلام الابتداء أى هو من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنفلق من أركانها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

« فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ » أي من نصرهم المبين في قوله تعالى ^(١) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا) (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) ^(٢) . (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) ^(٣) الآية .

واستظهر أبو السعود : أن المعنى بالوعد هنا عذابهم الأخروي المتقدم في قوله تعالى ^(٤) (إِنَّمَا يُوَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ) إلخ ولا يخفى أن الوعد قد بين في مثل الآية الأخيرة والأولين ، في معناها . والبيان يرفع اللبس . وإنما أوتر تقديم المفعول الثاني ، أعني (وعده) ، على الأول وهو (رسله) للإيذان بالعناية به . فإن الآية في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله به على السنة الرسل . فالهم في التهديد ذكر الوعيد . كذا في (الانتصاف) .

وفي (الكشف) تقديمه للاعتناء به وكونه المقصود بالإفادة . وما ذكره ممن وقع الوعد على لسانه ، إنما ذكر بطريق التبعية للإيضاح ، والتفصيل بعد الإجمال . وهو من أسلوب الترقى كما في قوله ^(٥) (رَبِّ أُمِرْتُ لِـ صَدْرِي) . « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ » أي غالب لا يماكر « ذُو انتِقَامٍ » من أعدائه ، نصراً لأولياءه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

« يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » وذلك أنه تسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى ، فلا يرى فيها عوج ولا أمت . وتبدل السموات

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٣) [٢٤ / النور / ٥٥] . (٤) [١٤ / إبراهيم / ٤٢] . (٥) [٢٠ / طه / ٢٥] .

بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً و (يوم) بدل من (يوم يأتيهم) أو ظرف للانتقام أو مقدر بـ (اذكر) أو (لا يخلف وعده) .
« وَبَرَزُوا » أى الخلائق أو الظالمون من أجدادهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » أى لحسابه وجزائه .

قال أبو السعود: والتعرض للوصفين تهويل الخطب وتربية المهابة وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفاً له . وتحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلاً من (يوم يأتيهم العذاب) فإن الأمر إذا كان لواحد غلاب ، كان فى غاية الشدة والصعوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

« وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ » جمع (مقرن) وهو من جمع فى قرن (بفتحتين) الوثاق الذى يربط به . أى قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم فى الجرائم والفساد . فيجمع بين النظراء والأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف . كما قال تعالى (١) : (أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) . وقال (٢) : (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) أو : قرنوا مع الشياطين ، لقوله تعالى (٣) : (لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال . وقوله تعالى « فِي الْأَصْفَادِ » أى القيود أو الأغلال جمع صَفَدَ (بفتحتين) بمعنى القيد أو الغل . والقيد هو الذى يوضع فى الرجل . والغُل (بالضم) ما فى اليد والعنق ، وما يضم به اليد والرجل إلى العنق . والجَار متعلق بـ (مُقرَّنِينَ) أو حال من ضميره أى مصفدين . وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٢] . (٢) [٨١ / التكوين / ٧] .

(٣) [١٩ / مريم / ٦٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (سَرَّابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ)

« سَرَّابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ » تشبيه لهم بأكره ما يوجد منظرًا عند العرب . وهو الإبل الجربى التى تطفى بالقطران . وإعلام بأن لهم أعظم ما ينال الجلد داء وهو تقرحه بالجرب . وأخبث ما يكون دواء لقبحه لوناً وريحاً ، وهو القطران . فإنه أسود مذقن الريح .

قال الزمخشريّ : تطفى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل وهى القمص لتجتمع عليهم الأربع : لدغ القطران ، وحرقته ، وإسراع النار فى جلودهم ، واللون الوحش ، ونتن الريح . على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين . وكلّ ما وعده الله وأوعده به فى الآخرة فيبينه وبين ما نشاهده من جنسه ما لا يقادَرُ قدره . وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامى . والمسميات ثمة . فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه . ونسأله التوفيق فيما ينبجينا من عذابه . انتهى .

ويؤيد ما بيناه من أن فى الآية إشارة إلى ابتلائهم بجرب جهنم : ما رواه الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركوهن : الفخر بالأحساب . والطمع فى الأنساب . والاستسقاء بالنجوم . والنياحة على الميت . والنائحة إذا لم تب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب .

وقد وقفت على رسالة لشمس البلاء الخوارزمى أنفذها لمن شكأ إليه داء الجرب . جاء منها قوله : الجرب حكة مادتها يبوسة وحرارة ووقود والتهاب . وعسكر من عساكر البلاء تمدد القذارة . كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة . وعلة تدل على تضيق واجب النفس من التعهد .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٤٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث ٢٩ (طبعنا) .

وعلى التفريط فى العلاج والتفقد . تنطق بأن صاحبها ضعيف المنّة فى التوقى . أسير فى يد
الحرص والتشمّى . غاشّ لنفسه . قليل البقيا على روحه . وهذه العلة تكسب صاحبها خزيا
وحياء . وتورثه خجلا واسترخاء . ينظر إلى الناس بعين الريب . ويتستر عنهم كتستر المعيب .
تنفر عنه الطباع ، وتستقذره النفوس . وتنبو عن مواكفته العيون . وأقل ما يصيبه أنه يحرم
آلة المطاعم وهى يده . وآلة اللقاء والزيارة وهى رجلاه . ولو لم يكن من دقائق آفاتهما . ومن
عجيب هباتها ، إلا أنها تشيخ الفتيان . وتمسخ الإنسان . وتجعله أميّاً بعد أن كان غير أميّ .
وأعجميّاً وليس بأعجميّ . تنفر عن نفسه نفسه . وتهرب من فراشه عرسه . ويتباعد عنه
أقرب الناس منه . ثم هى رُبّع من أرباع الخذلان وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعاذك الله من أشياء أربعة : الموت والعشق والإفلاس والجربُ
وما الظن بدءا قد سارت به الأمثال وقيلت فيه ، دون سائر الأدواء ، الأقوال .
قال أبو تمام (١) :

لما رأت أختها بالأمس قد خربتُ كان الخرابُ لها أعدى من الجربِ

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الديوان (طبعة بيروت) .

والصفحة رقم ٥٧ من الجزء الأول (طبعة المعارف) .

والبيت من قصيدة مطلعها :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ فى حدّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ
يمدح بها أمير المؤمنين المعتصم بالله .

قال الخطيب التبريزي ، شارح الديوان :

الهاء فى (أختها) راجعة على عمُوريّة . ويريد بأختها أنقرة . أى أنها لما خربت ، وهى
أخت عموريّة ، أعدتها بالجرب . والجرب يوصف بالعدوى .

وقال لبيد^(١) :

ذهب الذين يُعَاشُ في أكنافِهِمْ وبقيتُ في خَلْفِ كِجْلِدِ الْأَجْرَبِ
فجعلهُ رأسَ الأدواء . ووصفه بأنه غاية البلاء . انتهى . وقوله تعالى :

« وَتَغَشَّى أَوُجُوهُهُمُ النَّارُ » أى تعلوها وتحيط بها النار التى تمسّ جسدَهم المسربل بالقطران . وتخصيص الوجوه لكونها أعز موضع فى ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب فى باطنه ولذلك قال^(٢) (تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) ولكونها مجمع الحواس التى خلقت لإدراك الحق ، وقد أعرضوا عنه ، ولم يستعملوها فى تدبره . كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة ، وقد ملئوها بالجهالات . أفاده الزخشرى وأبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ » الجار متعلق بمحذوف . أى يفعل بالمجرمين مايفعل ليجزى الخ . و (النفس) مخصوصة بالنفس المجرمة بقرينة المقام . أو عام للبرّة والفاجرة . وعليه فيجوز تعلقه بقوله (وَبَرَزُوا) وما بينهما اعتراض أو بـ (ترى) « إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى محاسبة الخلائق يوم القيامة . لأنه لا يشغله شأن عن شأن . وجميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم . كقوله^(٣) (مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) أو المعنى سريع حسابه أى مجيئه كقوله^(٤) (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) .
وقوله تعالى :

(١) ديوانه ، القصيدة : ٨ من قصيدة مطلعها :

قَضَّ اللَّبَانَةَ لَا أَبَا لَكَ وَاذْهَبِ والحق بأمرِكَ الكرامِ الْغَيْبِ
يرثى بها أخاه لأمه ، أريد .

يقال : خلف خير ، وخلف سوء .

(٢) [١٠٤ / الهمزة / ٧] . (٣) [٣١ / لقمان / ٢٨] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
وَلِيَذْكُرُوا أُولَئِ الْأَلْبَابِ)

« هَذَا » إشارة إلى القرآن أو السورة وقوله « بَلَّغٌ لِلنَّاسِ » أى كفاية لهم لما فيه من العظة والتذكير . وقوله « وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۖ » أى ليخوفوا وليوعظوا به عن الجرائم التى أخذ بها الأولون « وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ » أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلائل على أنه لا إله إلا هو . وإنما قدم إنذارهم لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به ، دعته المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد . لأن الخشية أم الخير كله . أفاده الزمخشري : (وَلِيَذْكُرُوا أُولَئِ الْأَلْبَابِ) أى ليتعظ به ذوو العقول ، فيقبلوا على ما فيه نجاتهم وسعادتهم .